المستشرقة الرزينة لالاني
ودراستها عن الإمام الباقر عليه السلام[1]

أ.د. حامد ناصر الظالمي

حصلت الرزينة لالاني على شهادة الدكتوراه عام ١٩٨٨، من قسم الدراسات العربية والشرق أوسطية في جامعة إدنبرة عن اطروحتها حول الإمام الباقر عليه السلام والموسومة بـ«الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر عليه السلام» وكان المشرف على هذه الأطروحة الدكتور ايان هوارد، والدكتورة لالاني من الباحثات في معهد الدراسات الإسماعيلية في لندن، وحاز عملها هذا على جوائز عديدة في لندن وإيران وتُرجِمَ إلى لغات متعددة ومنها العربية. إذ قام سيف الدين قصير بذلك ونشرتها دار الساقي سنة ٢٠٠٤ وهي أستاذة في كلية الدراسات الشرقية بجامعة كامبردج ومستشارة في اللغة العربية في جامعة ديمونتفورت وتحاضر في معهد الدراسات الإسماعيلية.

هذه الرسالة تُعد من الدراسات الاستشراقية المهمة عن حياة الإمام الباقر عليه السلام وهي معتدلة في طروحاتها ونتائجها. إذ حاولت الباحثة إثبات مجموعة من الأفكار وهي:

---

١. المصدر: مجلة دراسات استشراقية، السنة الخامسة، العدد ٨، صيف ٢٠١٦م / ١٤٣٦هـ.

١. علمية الإمام الباقر عليه السلام التي فاقت معاصريه.

٢. تسامح الإمام الباقر عليه السلام وسيرته المحمودة.

٣. إنه أول إمام من أئمة الشيعة قام بالتعليم المُنظَّم أو بدأ بتنظيم التعليم الشيعي ووضع الضوابط له.

٤. قام بإثبات مفاهيم الإمامة (الإمامة، العصمة، الشفاعة) في ضوء القرآن الكريم.

٥. إثبات أنّ الإمامة هي بالنص وليست بالوراثة.

٦. والأمر المهم الذي بُني عليه الكتاب هو رأي لالاني أنّ جميع المدارس الفقهية الشيعية كانت قد اتبعت تعاليم الإمام الباقر عليه السلام وكل فروعها من (إمامية وزيدية وإسماعيلية) هي من مدرسة الباقر عليه السلام تحديدًا.

هذه الأمور التي ذكرناها وتبنّتها الكاتبة ارتبطت بشخصية مهمة في العالم الإسلامي من حيث النسب فهو (أي الإمام الباقر عليه السلام) أول شخص يكون جداهُ الحسن والحسين عليهما السلام معًا. فهو محمّد بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام وأمه فاطمة أم عبد الله إحدى بنات الحسن بن علي عليه السلام كانت ولادته في المدينة يوم الثلاثاء لثلاث خلون من صفر سنةَ ٥٧هـ وكان عمره ثلاث أو أربع سنين عند شهادة جده الإمام الحسين عليه السلام في واقعة كربلاء.

وقد انتقلت إليه الإمامة بعد وفاه والده الإمام علي بن الحسين عليه السلام وعمره ١٩ سنة، وهي السنة الأخيرة من حكم الوليد بن يزيد.

وقد أُختلِف في سنة وفاته عليه السلام، فاليعقوبي[1] في تأريخه يرى أنها سنة ١١٧هـ.

١. اليعقوبي، تأريخ اليعقوبي، ٢: ٢٤٨. إذ يرى أنّ وفاة أبي جعفر الباقر عليه السلام سنة ١١٧هـ وسنّه كان ٥٨ سنة.

والمسعودي[١] يقول إنّه عاش حتى سنة ١٢٥هـ، وأوردها الطبري في سنة ١٢٥هـ[٢]. ولكنه (أي الطبري) يذكر في مكان آخر وعند حديثه عن ثورة زيد بن علي أن الوفاة كانت قبل سنة ١٢٢هـ. لأن مجموعة من أتباع زيد بن علي عليه السلام تخلّت عنه وتقرّبت من جعفر الصادق[٣]. ومعلوم أنّ الإمام جعفر الصادق لم يمارس أي نشاط في حياة والده، وبهذا تكون هذه الحادثة قد حدثت بعد وفاة الإمام الباقر عليه السلام، فتقرّبت هذه الجماعة من الإمام آنذاك وهو جعفر الصادق عليه السلام سنة ١٢٢هـ.

وهناك حادثة مهمة يُفترض التوقف عندها وهي إدراك جابر بن عبد الله الأنصاري، الإمام الباقر عليه السلام. إذ يوجد تناقض في روايتها فهي عند الكليني أنّ جابرًا عندما كان يتجوّل ذات يوم في بعض طرق المدينة إذ مَرَّ بالكُتّاب، فلما نظر جابر إلى الباقر عليه السلام سأله أن يقبل إليه ففعل وأن يدبر ففعل الطفل ما أراد منه جابر فقالَ إنّها شمائل رسول الله والذي نفسي بيده. يا غلام ما اسمك؟

---

١. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، لأبي الحسن بن الحسين المسعودي تحقيق سعيد محمّد اللحام دار الفكر بيروت سنة ٢٠٠٥ إذ يقول « وفي أيام الوليد بن يزيد كانت وفاة أبي جعفر محمّد... وقد تنوزع في ذلك فمن الناس مَنْ رأى أنّ وفاته في أيام هشام وذلك سنة ١١٧هـ وهو ابن سبع وخمسين سنة».

٢. الطبري، تأريخ الطبري، ٨: ٢٦٥: إذ يقول «وتُوفي محمّد بن علي في مستهل ذي القعدة وهو ابن ثلاث وستين وكان بين وفاته ووفاة أبيه سبع سنين».

٣. الطبري، تاريخ الطبري، ٢: ٢٣٥. في حوادث سنة ١٢٢هـ إذ يقول عن أتباع زيد بن علي عليه السلام: «وكانوا يزعمون أن أبا جعفر محمّد بن علي أخا زيد بن علي هو الإمام، وكان قد هلك (أُثبِتْ هذه الكلمة رغم ما فيها من تجريح للامانة العلمية) يومئذ وكان ابنه جعفر بن محمّد حيًا، فقالوا جعفر إمامنا اليوم بعد أبيه وهو أحق بالأمر بعد أبيه ولا نتبع زيد بن علي فليس بإمام فسمّاهم زيد الرافضة» ويشير اليعقوبي إلى أن مقتل زيد كان سنة ١٢١هـ ينظر: يعقوبي، تأريخ اليعقوبي، ٢: ٢٥٦.

وعندما أجاب بأنه يدعى محمّد بن علي بن الحسين عليه السلام أقبل إليه جابر وقبّل رأسه، وأقسم بأمه وأبيه أنّ رسول الله يُقرئه السلام[١]. ولكن كيف رأى جابر إقبال وإدبار الإمام عليه السلام وكان جابر قد كفّ بصره آنذاك برواية القاضي النعمان في كتابه شرح الأخبار والرواية عكس ذلك لأن الباقر عليه السلام هو مَن يزور جابرًا وهو كفيف البصر ويسأله جابر عَمَّن يكون الغلام. ولكن في كل الأحوال المراد هو لقاء جابر به.

في مقدمة كتابها ترى المستشرقة الرزينة لالاني أنّ «دراسة المذهب الشيعي واحدة من أكثر فروع الدراسات الإسلامية إهمالًا في الغرب، غير أنّ مجموعة مختارة من العلماء كرّست ابّان العقود القليلة الماضية اهتمامًا جديًا بمجالات محددة من الإسلام الشيعي. ومن هذه المجموعة رولدف شتروتمن (١٨٧٧-١٩٦٠) ولويس ماسينيون (١٨٨٣-١٩٦٢) وتبعُهما هنري كوربان (١٩٠٣-١٩٧٨) وتُعد مساهمات كوربان فريدة في توفيرها فهمًا عميقًا للفكر الشيعي بوجهيه الإسماعيلي والإثني عشري معًا. وفي وقت أقرب عهدًا قام علماء مثل ايتان كوهلبرغ وويلفيرد مادونغ وهاينز هالم وحسين م. جفري وموجن مومن وفرهاد دفتري و م. أ. أمير معزي وآخرون برفع مستوى فهمنا للإسلام الشيعي إلى مستوى كبير»[٢].

لا أعتقد أنّ هذا الأمر صحيح إلى حدٍ كبير فالباحثة قد ذكرت عشرة مستشرقين كبار لهم دراساتهم في مجال التشيع ويوجد عدد كبير كذلك لم تذكره الرزينة لالاني يصل إلى أضعاف هذا العدد بكثير. أمثال المستشرق البريطاني داويت

---

١. الكليني، الكافي، ١: ٢١٨.

٢. لالاني، الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر، ١٩.

م. دونالدسون في كتابه المهم عقيدة الشيعة، الذي صدر عام ١٩٣٣ وكان في الأصل أطروحة دكتوراه في الفلسفة أو كتابات المستشرق جولدتسهير عن عقيدة الإمام المهدي عليه السلام وغيرهما من المستشرقين المتقدمين. وقد قدّم الدكتور عبد الجبار ناجي عملًا كبيرًا حول دراسات المستشرقين للتشيع في كتابه «التشيع والاستشراق عرض نقدي مقارن لدراسات المستشرقين عن العقيدة الشيعية وأئمتها»[١] وهو عمل يقع في خمسمائة صفحة تقريبًا يدرس فيه تطور الدراسات الاستشراقية للفكر الشيعي وعددها بالمئات. وعلى الرغم من وجود جوانب أُخر لم تُدرس، ولكن ما تم دراسته يعطي تصورًا واضحًا عن الشيعة لدى المفكرين الغربيين. ولكن الدراسات ازدادت فعلًا بعد الثورة الإسلامية في إيران فقد حفّز الأمر الباحثين والمستشرقين الجُدَد على دراسة التشيع من جميع الجوانب هذه المرة وخاصة من الجوانب التي لم تكن تُدرس في السابق ألا وهي النظريات السياسية وحكم الدولة والاقتصادية والأموال وغيرها فظهرت مثلًا دراسات المستشرق والسياسي الأمريكي من أصل إيراني ولي نصر وهي بعنوان «الإنبعاث الشيعي»[٢] ودراسة جرهارد كونستلمان المستشرق الألماني وهي بعنوان سطوع نجم الشيعة[٣] ودراسة فرانسوا تويال«الشيعة في العالم صحوة المستبعدين»[٤] ودراسة المستشرق نيكولاس بلانفورد وهي بعنوان «المارد الشيعي يخرج من القمقم ٣٠ عامًا من الصراع بين حزب الله وإسرائيل»[٥] وهي دراسة عن حزب الله اللبناني. ودراسة

١. ناجي، التشيع والاستشراق عرض نقدي مقارن لدراسات المستشرقين عن العقيدة الشيعية وأئمتها.
٢. نصر، الانبعاث الشيعي كيف ستشكل الصراعات الداخلية.
٣. كونسلمان، سطوع نجم الشيعة.
٤. تويال، الشيعة في العالم: صحوة المستبعدين واستراتيجيتهم.
٥. بلانفورد، المارد الشيعي يخرج من القمقم.

الباحث الياباني داي يامو من جامعة كيوشو عن تأريخ الأحزاب الإسلامية في العراق التحول في حزب الدعوة(١٩٥٧-٢٠٠٩)[١] ودراسة المستشرق العبري الأصل يستحق نقاش عن شيعة العراق[٢].

وعندما نأتي إلى دراسة لالاني نجدها دراسة أكاديمية متزنة فيها أراء تستند إلى أدلة عديدة وأحكام مهمة فهي تقول عن الإمام الباقر عليه السلام: «كان الباقر عليه السلام معاصرًا أصغر سنًا من الرجال السبعة للفقه في المدينة، سعيد بن المُسيب، وعروة بن الزبير وأبي بكر عبد الرحمن، وعبيد الله بن عبد الله بن عُتبه وخارجة بن زياد بن ثابت وسليمان بن يسار وقاسم بن محمّد بن أبي بكر الذي كان حما الباقر عليه السلام، كما كان معاصرًا أكبر سنًا أيضًا لعلماء مثل مالك بن أنس، وابن عُيينة وابن أبي ليلى، وأبي حنيفة وسفيان الثوري، والأوزاعي، وقد وقف الباقر عليه السلام ندًّا إنْ لم يكن متفوقًا لهؤلاء العلماء البارزين وطبقًا لبعض العلماء فإنه لم يُنظر إليه على أنه واحد من بين علماء متميزين كثيرين من عصره، بل تفوق عليهم جميعًا بدرجة كبيرة»[٣].

اهتم الإمام الباقر عليه السلام كما هو معروف من اسمه بالعلوم وحاول تنظيم التعليم الإسلامي لذلك توصّلت لالاني إلى رأي جدير بالاهتمام بقولها: «إنّ الباقر عليه السلام لعب دورًا هامًا في التأريخ من كلتي وجهتي النظر الدينية والفكرية، وعلى الرغم من امتناعه عن المشاركة في السياسة النشطة إلّا أن يبرز كقائد حاذق

١. صدر عن بيت الحكمة وبغداد بترجمة د.فلاح حسن الأسدي والدكتور محمود عبد الواحد محمود سنة ٢٠١٢.

٢. صدرت عام ١٩٩٠ وصدرت بترجمة أخرى عن دار المدى وهي في الأصل أطروحة دكتوراه كتبها في الجامعة العربية في إسرائيل.

٣. لالاني، الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر، ١٤٤.

وعالم متضلع ليس فقط في مسائل الشعائر والطقوس بل أيضًا في تفسير القرآن، والأحاديث النبوية ومسائل تتعلّق بالفقه إلى جانب موضوعات ذات طبيعة تنتمي إلى العالمين الروحاني والدنيوي معًا، في حين لم يكن التعليم الشيعي قد اتخذ قبل زمن الباقر عليه السلام شكله الخاص به، هذا وقد شهدت حياة الباقر عليه السلام ازدهار العلم في حقول متنوعة حيث لعبت دورًا في هذه المسيرة التأريخية وهذا ما شهد عليه العدد الكبير من الأحاديث التي أُسندت روايتها إليه، كما كان أيضًا أول معلم شيعي يشترك في تعليمٍ منظم»[١].

هذه المدرسة الفقهية التي بدأ بتكوينها الإمام الباقر عليه السلام هي مدرسة متسامحة مؤثرة ومتأثرة بالمذاهب الفقهية الأُخر المعاصرة كما مرّ بنا. وليست في حالة انقطاع وانكفاء عن بعضها البعض وخاصة فيما يتعلق بالفقه في المدارس الشيعية على الرغم من عدم وجود كتاب محدد للإمام الباقر عليه السلام في الأحكام الفقهية وطرق الاستدلال ولكن يُعد مرجعًا للفقه الشيعي بكل اتجاهاته، تقول لالاني: «وليس هناك مبالغة في دور الباقر عليه السلام في الفقه إذ يبدو أنّ الفقه الزيدي،[٢] ليس وحده الذي استمد منه، بل هناك أيضًا الفقهان الإسماعيلي[٣] والإثنا عشري[٤]، اللذان دوّن كلاهما أحاديث كثيرة في الفقه مُستَمدة من الباقر عليه السلام ويعتبرانه بمنزلة الأب لفقههما وبما إن الفقه الزيدي الذي تم تصنيفه في اليمن في نهاية الأمر والفقه الإسماعيلي المُصَّنف في مصر والفقه الإثني عشري المُصَّنف في بغداد وقُم، كلها تعود في أصلها إلى هذه الشخصية الواحدة فلا يبقى هناك سوى

١. لالاني، الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر عليه السلام، ٢٦.

٢. ينظر: زيد بن علي، مجموع الفقه لزيد بن علي؛ كتاب الأمالي لأحمد بن عيسى منشور في مجموع الفقه.

٣. يُنظر: مغربي، دعائم الإسلام ولاسيما كتاب الإيضاح الذي يضم أحاديث كثيرة للإمام الباقر عليه السلام.

٤. ينظر: الكليني، الكافي، فجلّ الأحاديث الموجودة فيه هي للباقر وولده الصادق عليه السلام.

مجال ضئيل للشك في دوره المؤسس والريادي»،[١] بل حتى في الجانب السياسي والاقتصادي يُنظر إلى الإمام الباقر عليه السلام، أنّه كان متسامحًا ويقدم نصائحه لَمَنْ يحتاجها، إذ يذكر البيهقي في المحاسن والمساوئ اعتماد عبد الملك بن مروان على الإمام الباقر عليه السلام بشان النقود الذهبية التي توعّد إمبراطور البيزنطيين عبد الملك أنه سيبدلها بسكةٍ في غير صالح الأمويين، فقد وفرّ له الإمام الباقر عليه السلام حلًّا ومخرجًا أنقذه من ذلك الأمر[٢].

ويستمر منهج الإمام الباقر عليه السلام وابنه الصادق عليه السلام في موضوع رفض الأحاديث الموضوعة وتدوين الصحيح منها وروايتها وعدم القبول بالاتجاهات المغالية، حتى في المذهب الإمامي، ولذلك ترى لالاني «أنّ مؤسسة الإمامة هي مؤسسة وراثية في طبيعتها ولم تكن لتعتمد على خروج الإمام، وكان الباقر عليه السلام يعمل على إدخال فكرة الإمامة المسالمة – غير الثائرة»[٣] وعلى الرغم من الخلاف حول هذا المبدأ بين الإسماعيليين والزيدية من جهة ومدرسة الباقر عليه السلام والصادق عليه السلام من جهة أخرى إلاّ إنّ«الفقه الإسماعيلي الذي تقونن على يد القاضي النعمان بعد أكثر من قرنين من الزمن، اعتمد على أحاديث منقولة عن الباقر عليه السلام والصادق عليه السلام بشكل أساسي واعتمد الفقه الزيدي على الباقر عليه السلام إلى حدٍ كبير ولذلك لن نكون مبالغين، إذا ما قلنا إنّ الباقر عليه السلام هو أبو الفقه الشيعي وإنّ تأثيره لايزال محسوسًا في الدوائر الشيعية حتى يومنا هذا»[٤]. وهذا ما نجده في موضوعات اتفقت تلك المذاهب عليها ومنها كما تقول لالاني «ما وصلنا من أحاديث الباقر عليه السلام

١. لالاني، الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر، ١٦٥.
٢. يُنظر: البيهقي، المحاسن والمساوئ.
٣. لالاني، الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر، ٨١.
٤. م.ن.، ١٧٦.

من المصادر الشيعية الثلاثة كلها الزيدية[١] والإسماعيلية[٢] والإثني عشرية،[٣] تشير إلى أنّ التحريم الشيعي للمسح على الخفين يعود إلى زمن الباقر عليه السلام»،[٤] بل ومن الأمور الفقهية المهمة والتي يطرحها أحد الدارسين لمباني الفكر الشيعي وهو الدكتور حسين مدرسي طباطبائي، وهو من أصول إيرانية وكتابُه المكتوب باللغة الإنكليزية أصلًا والمترجم إلى العربية والمنشور في إيران وعنوانه تطور المباني الفكرية للتشيع يرى وفقًا لاستدلالاته أنّه «لم يكن الأئمة الأوائل بما فيهم الإمامان الباقر[٥] والصادق[٦] يأخذون الخُمس من أتباعهم، وكان الاعتقاد السائد هو أنّ هذه الضريبة سوف يأخذها قائم آل محمّد بعد أن يُقيم دولته[٧]، بديلًا عن الضرائب التي تفرضها الحكومات الظالمة لا إضافة لها. ويبدو أنّ الجباية الثابتة والمنظمة لهذه الضريبة باعتبارها فريضة مالية عامة بدأت منذ العام ٢٢٠هـ عندما أصدر الإمام الجواد عليه السلام أمرًا خطيًا إلى وكلائه في البلاد يطلب فيه منهم جباية

١. المرادي، أمالي أحمد بن عيسى، ٢٣٤.

٢. مغربي، دعائم الإسلام، ١: ١٥٣.

٣. وقد راجعت النص: الكليني، الكافي، ج٢، باب الفروع «عدّةٌ من أصحابنا عن أحمد بن محمّد عن الحسين بن سعيد عن فضالة بن أيوب عن أبان عن إسحاق بن عمار قالت سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن المريض هل له رخصة في المسح قال: لا » وجاء عن «علي بن إبراهيم عن أبيه عن حريز عن زرارة قال قلتُ له في مسح الخفين تقية فقال ثلاثة فيهّن أحدًا شرب المُسكر ومسح الخُفين ومتعة الحج. قال زرارة: ولم يقل الواجب عليكم ألآ تتقوا فيهن أحدًا» الكليني، الكافي، ٢: ١٨، باب ٢٠، فقرة ١٥٠ و١٥١.

٤. لالاني، الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر، ١٦٨.

٥. المرادي، أمالي أحمد بن عيسى ، ٢٣٤.

٦. وقد راجعت النص: مغربي، دعائم الإسلام، ١: ١٥٣.

٧. الكليني، الكافي، ١: ٤٠٨؛ الطوسي، تهذيب الأحكام، ٤: ١٤٤؛ النعماني، الغيبة، ٢٣٧.

الخمس[١]. في أنواع خاصة من عائدات الدخل السنوي، وقد أكّد الإمام في ذلك الأمر أنه سيأخذ الخمس في تلك السنة فقط لأسباب لم يرغب في كشفها وصادفت تلك السنة آخر سنوات عمره الشريف، ولعلَّ السبب كان سدّ العجز المالي لبعض أفراد البيت النبوي وتدل الوثائق التأريخية بعد ذلك على أنّ السنوات الأخيرة من إمامة الإمام المهدي عليه السلام شهدت جباية مستمرة ودقيقة للخمس قامت بها شبكة فائقة التنظيم من وكلاء الإمام في شتى أنحاء العالم[٢] الإسلامي[٣].

قد يكون هذا الاستنتاج غير دقيق وإلاّ لو كان الأمر قد حدث لسنة واحدة فلماذا يستمر الإمام القادم بعد الجواد عليه السلام وهو ابنه الهادي عليه السلام، بالتأكيد على هذا الموضوع والاستمرار به والتدقيق فيه.

أما أهم ما كان في كتاب الرزينة لالاني عن الإمام الباقر عليه السلام هو تأكيدها على تأصيل فكرة الإمامة في الفكر الشيعي قرآنيًا على يد الإمام الباقر عليه السلام وهذا الأمر أكّده فيما سبق المستشرق كوهلبرغ في بحثه المعنون محمّد الباقر عليه السلام في دائرة المعارف الإسلامية بقوله «إنّ الإمام يُعّد الأول من بين الأئمة في تشكيل وبناء ما صار يعرف بالعقائد الأساسية للمذهب الإثني عشري أي بما يتعلق بوضع نظرية لمبدأ النص في الإمامة وفي أصول الفقه الإمامي»[٤]. ولذلك تابعت الرزينة لالاني أقوال الإمام الباقر عليه السلام في هذا الموضوع وأفردت لها الفصل الثالث من كتابها من ص ٨٩-١٢١ ومن ذلك حديثه عن قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾(المائدة: ٥٥).

---

١. الطوسي، تهذيب الأحكام، ٤: ١٤١؛ ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، ٤: ٣٨٩.

٢. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ٦: ٣٤٨-٣٤٩.

٣. المدرسي الطباطبائي، تطور المباني الفكرية للتشيع في القرون الثلاثة الأولى، ٢٢.

٤. ناجي، التشيع والاستشراق عرض نقدي مقارن لدراسات المستشرقين عن العقيدة الشيعية وأئمتها، ٤٠.

تقول لالاني: «يجزم الباقر عليه السلام في تعليقه على الآية أنّها نزلت بشكلٍ قاطع في الوقت الذي كان فيه الرسول صلى الله عليه وآله مع مجموعة من اليهود وكان عبد الله بن سلام من بين هؤلاء الحاضرين[١] وما أن نزلت الآية حتى نهض الرسول صلى الله عليه وآله وسار إلى المسجد حيث قابل متسوّلًا وعندما سأله الرسول عمّا إذا كان أحدٌ ما قد أعطاه شيئًا. أشار المتسول إلى رجلٍ كان لايزال يصلي، أما الرجل فكان عليًا»[٢].

وآية ثانية هي قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾(المائدة: ٣) تقول لالاني: «أما موقف الباقر عليه السلام بخصوص الآية الواردة في مختلف المصادر الشيعية[٣] فهو واضح جدًا لقد نزلت هذه الآية كما يقول بمناسبة تعيين علي إمامًا في غدير خُم»[٤].

وآية ثالثة هي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ..**﴾(النساء: ٥٩).

تقول لالاني عن تفسير الباقر عليه السلام لهذه الآية «هذه الآية المثيرة للجدل أكثر من تلك التي سبق ذكرها حيث إن المشكل الواضح هنا هو هوية ولي الأمر... أما تفسير الباقر[٥] عليه السلام لهذه الآية فهو أنّ أولي الأمر هم الأئمة من آل بيت محمّد»[٦].

---

١. القمي، تفسير القمي، ١: ١٧٠؛ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٣: ٥٤٩؛ الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ٣: ٢٠٩.

٢. لالاني، الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر، ٩١.

٣. الكليني، الكافي، ١: ١٣٣، باب ٦٤، فقرة ٧٦٤؛ القمي، تفسير القمي، ١: ١٦٢؛ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٣: ٤٣٥؛ الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ٢: ١٥٩؛ الرازي، الزينة في الكلمات الإسلامية، ٢٥٦ وما بعدها.

٤. لالاني، الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر، ٩٤.

٥. الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٣: ٢٣٥؛ الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ٢: ٤٦.

٦. لالاني، الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر، ٩٦.

وعن قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾(النساء: ٥٤) تقول لالاني «تفسير الباقر عليه السلام أي جعلنا منهم رسلًا وأنبياء وأئمة... وأن الله جعل من بينهم قادة طاعتهم مساوية لطاعة الله وعصيانهم مساوٍ لعصيان الله ويتساءل الباقر عليه السلام[١] كيف يمكن للناس قبول هذا المركز لآل إبراهيم وإنكاره لآل محمّد ؟»[٢].

وعن قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾(آل عمران: ٧) تقول لالاني عن تفسير الإمام الباقر عليه السلام لهذه الآية: « يقول الباقر[٣] في تعليقه على هذه الآية إنّ الرسول صلى الله عليه وآله كان أفضل أولئك الراسخين في العلم فقد علّمه الله كل ما يتعلق بما أنزله إليه وكيف يفسّره، أما الأئمة فهم الذين يعلمون من بعده كل تفاسير القرآن. والأئمة هم وفقًا لتأويله للآية ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾(فاطر: ٣٢) فالقوم الذين يسبقون الآخرين في فعل الخيرات هم الأئمة وأولئك الذين يتبعون الطريق الوسط الذين يُقرّون بحق الإمام.

أما أولئك الذين لا يظلمون أنفسهم فهم القوم الذين يقرّون بحق الإمام وأما أولئك الذين يظلمون أنفسهم فهم القوم الذين لايعترفون بالأئمة ويُبين الباقر عليه السلام في اختتامه هذا العرض الطويل للإشارات القرآنية إلى الأئمة»[٤].

وعن قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾(الشوري:

---

١. م.ن.، ٢٠٥-٢٠٦.

٢. م.ن.، ٩٧.

٣. وقد راجعت النص وهو موجود في: مغربي، دعائم الإسلام، ١: ٥٩.

٤. لالاني، الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر، ٩٨.

٢٣) تشرح لالاني تفسير الإمام الباقر عليه السلام لهذه الآية فتقول: «يجزم الباقر عليه السلام أنّ طاعته ليست حقًا على المؤمنين فحسب ولكن واجب مفروض على المتعبدين وفقًا لما ورد وأنّ الأمة تختلف حول تأويل هذه الآية فهناك أربع فئات تعتقد كل واحدة منها بآراء متباينة:

١. تعتقد فئة منها أنّ هذه الآية قد نزلت في آل البيت.

٢. على حين تؤكد الفئة الثانية أنّها نُسخت بآية أخرى ﴿**قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾(سبأ: ٤٧)، يحتج الباقر عليه السلام في نقضه لموقفهم هذا بأنّ هذه الآية يمكن أن تكون قد نزلت فقط، أما قبل الآية الأولى أو بعدها، فإذا كانت قد نزلت قبلها، فمن الواضح إذًا أنّها لا يمكن أن تلغي أو تنسخ الآية التي نزلت بعدها، أما إذا كانت قد نزلت بعد آية ﴿**الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ**﴾ فتكون الآية الأخيرة إذًا أكثر توكيدًا لأن المودة في القربى التي سألها النبي من المؤمنين لا تنفع النبي وحده فحسب بل المؤمنين أيضًا ومن هنا جاء في الآية ﴿**قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ**﴾.

٣. وتعتقد الفئة الثالثة وفقًا للباقر عليه السلام أنّ المقصود بهذه الآية هم العرب جميعًا لأنه كان للنبي قرابة مع كل بيت عربي وقالوا إن النبي سألهم أن يحبوه عبر هؤلاء ويحتج الباقر عليه السلام بأنه إذا كان الذين سألهم النبي مؤمنين فإنّهم سيحبونه إذًا لإيمانهم واعتقادهم به، فلماذا سيكافئهم الله على ذلك؟ أما إذا كان الذين يخاطبهم كفارًا فكيف سيكافئهم الله على شيء لا يؤمنون به؟

ويقول الباقر عليه السلام علاوة على ذلك إن حصر (المؤمنين) بالعرب وحدهم هو جهل منهم إضافة إلى أنّه يتضمن شيئًا من التطاول والغرور بل إنّه تحريف في تأويل كتاب الله وتشويه لكلماته لأن الآية تخاطب جميع المؤمنين العرب وغير

العرب وكل أولئك الذين يؤمنون بالله وبالرسول مُكلَّفون بحب أقارب نبيّه.

٤. وترى الفئة الرابعة. وهي التي أسست نفسها على رواية عن الحسن البصري أنّ هذه الآية تعني تحقيق القرب من الله من خلال طاعته، ويعبّر الباقر عليه السلام عن سخطه تجاه ذلك داعيًا الحسن البصري بـ (المُحرِّف لكلام الله) ومشيرًا إلى تأويله بأنه بعيد عن الحقيقة، ورأى أنّه إذا كان ذلك فعلًا هو التأويل فإنّ كلمتي المودّة والأجر الواردتين في الآية، تصبحان من دون معنى»[1].

وعن عبارة نور الله الوارد ذكرها في آيات من القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا**﴾(التغابن: ٨) والآية ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ...**»(الحديد: ٢٨) يقول الباقر عليه السلام: النور هو الأئمة،[2] وهو رأيه نفسه في قوله تعالى: ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا**﴾(الأنعام: ١٢٢)، إذ يقول الباقر عليه السلام إنّ الميت يعني أولئك الذين لا يعلمون شيئًا وأنّ النور الذي يمشي به في الناس يعني الإمام الهادي أو المرشد وذلك الذي في الظلمات ليس بخارج منها يعني الذين لا يعرفون الإمام»[3].

وتقول لالاني: «وفي تشديده على الطابع الوراثي للإمامة يقول الباقر عليه السلام: إنها بقيت في ذرية الأئمة[4] وهو يؤول هنا الآية ﴿**وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ**

---

١. م.ن.، ٩٨-٩٩.

٢. والنص موجود وقد راجعته: الكليني، الكافي، طبعة مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية، ١: ٨٨، باب ١٣، فقرة ٥١٨، فقره ٥١٩، فقره ٥٢٠، فقره ٥٢١، فقره ٥٢٢ وفقره ٥٢٣ والمقصود بالنور الأئمة.

٣. لالاني، الفكر الشيعي والنص موجود وقد راجعته، ٩٩.

٤. عند مراجعتي للنص وجدته في: الكليني، الكافي، ١: ١٣٠، باب ٦٣، فقره ٧٥٤، فقره ٧٥٥، فقره

﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾(الأحزاب: ٦) ويرى أنّها نزلت في أبناء الحسين عليه السلام خصوصًا بينما تصف آية أخرى من هذا الصنف وراثة الإمام[١] «وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه لعلّهم يرجعون»[٢].

ويتبلور هنا مفهوم العصمة عند الإمام الباقر عليه السلام عندما يشرح قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(الأحزاب: ٣٣)[٣].

وعن فكرة الشفاعة الوثيقة الصِلة بمفهوم العصمة والإمامة ترد الآية ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ...﴾(الاسراء: ٧١)، ويفسرها الباقر عليه السلام بقوله: «إنّ المسلمين سألوا الرسول عندما نزلت، إذا لم يكن هو نفسه إماما لكل الناس، أجاب النبي بأنّه رسول الله إلى جميع الناس لكن الأئمة من بعده سيكونون من أهل بيته وسيتعرضون للاضطهاد بدلًا من القبول، أما أولئك الذين أحبّوا الأئمة واتبعوهم وآمنوا بهم فهؤلاء منه بينما أولئك الذين اضطهدوهم واتهموهم بالكذب فهؤلاء ليسوا منه وسينكرهم يوم القيامة»[٤]. وبهذا يطرح الإمام الباقر عليه السلام التأويلات الأُول لمفاهيم إسلامية مترابطة كالإمامة والعصمة والشفاعة وهي من أهم التأويلات التي أسس لها الباقر عليه السلام قرآنيًا.

وعرضنا هنا جانبًا من تلك التأويلات لمجموعة من الآيات القرآنية.

---

٧٥٦ وفقره ٧٥٧.

١. القمي، تفسير القمي، ٢: ٢٧٤.

٢. لالاني، الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر، ١٠١.

٣. لالاني، الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر، ١٠١؛ القمي، تفسير القمي، ٢: ١٩٣.

٤. لالاني، الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر، ١٠٢ ويُنظر: الكليني، الكافي، ١: ٩٨، باب ٢٥، فقرة ٥٧٠ وفقرة ٥٧١.

من أقوال الباقر عليه السلام كما وردت في حلية الأولياء:[١]

١. قال: «الْإِيمَانُ ثَابِتٌ فِي الْقَلْبِ وَالْيَقِينِ خَطَرَاتٌ فَيَمُرُّ الْيَقِينُ بِالْقَلْبِ فَيَصِيرُ كَأَنَّهُ زُبَرُ الْحَدِيدِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ فَيَصِيرُ كَأَنَّهُ خِرْقَةٌ بَالِيَة».

٢. قال: «مَا دَخَلَ قَلْبَ امْرِئٍ شَيْءٌ مِنَ الْكِبْرِ إِلَّا نَقَصَ مِنْ عَقْلِهِ مِثْلَ مَا دَخَلَهُ مِنْ ذَلِكَ قَلَّ ذَلِكَ أَوْ كَثُرَ».

٣. قال: «سلاح اللئام قبح الكلام».

٤. قال: «وَ اللَّهِ لَمَوْتُ عَالِمٍ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنْ مَوْتِ سَبْعِينَ عَابِدا».

٥. قال: «إِنَّكَ إِنْ كَسِلْتَ لَمْ تُؤَدِّ حَقًّا وَإِنْ ضَجِرْتَ لَمْ تَصْبِرْ عَلَى حَق».

٦. قال: «إِيَّاكُمْ وَالْخُصُومَةَ فَإِنَّهَا تُفْسِدُ الْقَلْبَ وَتُورِثُ النِّفَاق».

ومن أقوال الباقر عليه السلام كما وردت في طبقات ابن سعد:[٢]

١. قال: «لا تخاصم فانّ الخصومة تكذّب القرآن».

٢. قال: «لَا تُجَالِسُوا أَصْحَابَ الْخُصُومَاتِ فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ اللَّه».

٣. قال: «إيّاكم والضحك، أو قال: وكثرة الضحك، فإنّه[يصبح] يمجّ العلم مجّا».

---

١. ابي نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ١٨٠-١٩٢.

٢. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤: ٨.

المصادر

١. ابن شهر آشوب المازندراني، محمّد بن علي، مناقب آل ابي طالب، قم، انتشارات علامه، ١٣٧٩ش.

٢. ابن‌سعد، محمّد بن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٩٤.

٣. أبي نعيم الأصفهاني، حافظ أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، القاهرة، دار الحديث، ٢٠٠٩.

٤. بلانفورد، نيكولاس، المارد الشيعي يخرج من القمقم، الترجمة: حسان بستاني وزينة إدريس، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٢.

٥. البيهقي، ابراهيم بن محمّد، المحاسن والمساوئ، بيروت، دار صادر.

٦. تويال، فرنسوا، الشيعة في العالم صحوة المستبعدين واستراتيجيتهم، نقله عن الفرنسية نسيب عون، بيروت، دار الفارابي، ٢٠٠٧.

٧. الذهبي، محمّد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) تاريخ الإسلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

٨. الرازي، احمد بن حمدان، الزينة في الكلمات الإسلامية، اليمن، الدار المحمّدية الحمدانية، ٢٠١٠.

٩. زيد بن علي، مجموع الفقه لزيد بن علي، ميلانو، نشره جريفيني، ١٩١٩.

١٠. الطبري، محمّد بن جرير، تأريخ الطبري، بيروت، طبعة دار الفكر، ٢٠٠٢.

١١. الطوسي، محمّد بن حسن (م. ٤٦٠ق.)، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق احمد قصير عاملي، مكتب الاعلام الإسلامي، ١٤٠٩ق.

١٢. ــــــــــــ، تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للشيخ المفيد، تحقيق: السيّد حسن الموسوي الخرسان، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٤ش.

١٣. الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٩٩٥م.

١٤. الكليني، أبي جعفر محمّد بن يعقوب، (ت٣٢٩هـ/ ٩٤١م) الأصول من الكافي، تحقيق:علي أكبر الغفاري، ط٥، طهران، حيدري، ١٣٦٣هـ.

١٥. كونسلمان، جرهارد، سطوع نجم الشيعة الثورة الإيرانية من ١٩٧٩، مصر، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٤.
١٦. لالاني، الرزينة، الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمّد الباقر، الترجمة: سيف الدين القصير، بيروت، دار الساقي، ٢٠٠٤م.
١٧. مدرسي الطباطبائي، سيد حسين، تطوّر المباني الفكرية للتشيّع في القرون الثلاثة الأولى، الترجمة: فخري مشكور، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٣ هـ.
١٨. المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق سعيد محمّد اللحام، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠٥.
١٩. مغربي، قاضي نعمان بن محمّد تميمي (م. ٣٦٣ق.)، دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، تحقيق: عارف تامر، بيروت، دار الأضواء، ١٩٩٥.
٢٠. ناجي، عبدالجبار، التشيع والاستشراق عرض نقدي مقارن لدراسات المستشرقين عن العقيدة الشيعية وأئمتها، بيروت، منشورات المركز الأكاديمي للأبحاث، ٢٠١١.
٢١. نصر، ولي، الانبعاث الشيعي كيف ستشكل الصراعات الداخلية، الترجمة: مختار الأسديف، عراق، دار الكتب العراقية، ٢٠١١.
٢٢. النعماني، محمّد بن إبراهيم (م. ٣٦٠ق.)، الغيبة، تحقيق فارس حسون، قم، أنوار الهدى، ١٤٢٢هـ.
٢٣. يامو، داي، تأريخ الأحزاب الإسلامية في العراق التحول في حزب الدعوة، الترجمة: د.فلاح حسن الأسدي والدكتور محمود عبد الواحد محمود، عراق، بيت الحكمة وبغداد، ٢٠١٢.
٢٤. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت٣٨٤هـ/ ٩٩٤م)، تاريخ اليعقوبي، ط٢، شريعت، قم، منشورات دار الاعتصام، ١٤٢٥هـ.